



الفصل الثاني

الأخذ بفهم السلف

تمهيد



يعتبر فهم السلف أحد الركائز الأساسية المقومة لمنهج الاستدلال عند أهل السنة والجماعة، ومن أهم ما يحصل به التمايز بينهم وبين المخالفين.

وذلك لما ثبت للسلف من الفضائل والمزايا والخيرية، التي شهد لهم بها رسول الله ﷺ في قوله: (خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، والخيرية هنا عامة، تشمل الأقوال والأعمال والاعتقادات والفهم وغيرها، فهم أفضل من الخلف في كل فضيلة، وهذا مجمع عليه عند أهل السنة والجماعة؛ ولذا كانت أقوالهم وتصرفاتهم من أحسن ما يستدل به على معاني نصوص الوحي.

ونظراً لهذه المنزلة السّامية لفهم السلف، كان من الضروري الكشف عن مفهومه، وسبل تحصيله، والجواب عما يُثار حوله من إشكالات.



المبحث الأول

المراد بفهم السلف وطريقة تحصيله



المطلب الأول

المراد بفهم السلف

المسألة الأولى

المراد بفهم السلف باعتباره مركبًا

الفهم لغة:

هو معرفة الشيء والعلم به.

السلف لغة:

التقدم والسبق والمضي.

وأما من حيث الاصطلاح فله استعمالان:

الاستعمال الأول

إطلاقه على حقبة زمنية معينة، والمعتمد في تحديد هذه الحقبة هو قوله ﷺ: (خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، فالسلف هم أصحاب هذه القرون الثلاثة التي وقع تفضيلها في الحديث، ومن ثم كان لا بد من بيان مفهوم القرن ليتحدد معنى السلف، **والقرن لغة له إطلاقان:**

الأول: باعتبار الزمان، فهو الوقت من الزمان.

الثاني: باعتبار الأشخاص، وهم أهل كل زمان.

وبعه للاختلاف اللغوي وقع الاختلاف في المعنى الاصطلاحي على قولين:

من حدهه **بالزمن**، وأصحاب هذا القول اختلفوا في تحديده
على أقوال عده ما بين عشرة أعوام إلى مئة وعشرين عاماً، وإن
كان أشهرها تحديده بالمائة.

١

من حدهه **بالأشخاص**، وأقوالهم تؤول إلى أن المراد بالقرن
هو مقدار التوسط في أعمار أهل كل زمان، وهذا ما قرره ابن
تيمية؛ وذلك أن القرن مشتق من الاقتران، فيكون المراد به
جمهور القوم الذي اقترنوا في زمان واحد.

٢

وبناء على هذا التقرير فالمراد بالسلف هم أهل القرون الثلاثة الذين أثني عليهم النبي ﷺ، وهم على رأي ابن تيمية: جمهور الصحابة، وقد انقرضوا بانقراض الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان، وقد انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعي التابعين، وقد انقرضوا في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية.

الاستعمال الثاني

فهو إطلاقه على منهج ومذهب معين، **والمراد به**: ما كان عليه الصحابة الكرام وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامية، من علم وعمل واعتقاد وفقه وأخلاق وسلوك وعبادة، وسائر شؤون الدين، ولا يدخل في ذلك من رُمي ببدعة، أو انتسب لغير أهل السنة.

المُسَأَّلَة الثَّانِيَةُ

المراد بفهم السلف باعتباره لقباً

(فهم السلف) أو (فهم الصحابة) مصطلحان يردا في كلام ابن تيمية كثيراً، وإن كان الأخير أكثر وروداً، وهذا المصطلحان يدخلان في معناهما كل ما فهمه السلف الصالح واستنبطوه من معانٍ الكتاب والسنة، ويدخل فيه أيضاً منهجهم في التعاطي مع النصوص والتعامل معها فهماً واستدلاً، وكذا ما استفادوه من النصوص من معانٍ وأحكام وشرائع وعقائد وأخلاق وغير ذلك.

والقول بأن المراد بـ(فهم السلف) هو منهجهم في الاستدلال؛ قول لا يحصل به التمايز التام في الجملة؛ وذلك لأن فهم السلف هو أحد المعايير التي بها يتميز منهج أهل السنة والجماعة عن بقية الفرق.

ومن ثمَّ فإن المراد بفهم السلف المحتاج به، والذي به يمتاز أهل السنة عما سواهم؛ هو ما حققه من مناطات قواعد الاستدلال، وما طبقوه على النصوص. وبعبارة أخرى: فهم السلف؛ هو فهم مخصوص بأمر معين، وهذا الفهم من خلال تتبع لعبارات ابن تيمية في مواطن عديدة يتمثل فيما أجمع عليه السلف في المطالب الشرعية، سواء كان إجماعهم صريحاً، أو سكوتياً، أو ضمنياً، كما أن إجماعهم شامل للمسائل والدلائل، وإجماعهم ربما يكون على حكم مسألة، أو تفسير دليل، كما أن إجماعهم قد يكون على مسألة جزئية؛ كرؤيه الله في الآخرة عياناً، وقد يكون على مسألة كلية منهاجية لها فروع وتطبيقات تمتد في أبواب كثيرة، كإجماعهم على قبول خبر الواحد في سائر مطالب الدين؛ في العلميات والعمليات.



**لماذا عرب (فهم السلف) أو (فهم الصحابة) عن
الإجماع، ألا يفترض أن يعبر بمصطلح (الإجماع) لكونه
مصطلحًا متداولًا ومشهورًا عند العلماء، كما أن التعبير
به يزيل كثيرًا من الوهم الذي تغشّى بعض الأوهام
فظننت أن فهم السلف يبأين الإجماع؟**

لم أقف على نص لابن تيمية يبين سبب هذا الإطلاق، إلا
أن هناك أمورًا يمكن أن يلتمس منها السبب، وهي:

أن السلف قد استوفوا الكلام على
تفسير القرآن ومطالب الاعتقاد
المتقررة في الكتاب والسنة.

أن لفظ الإجماع ينصرف حين إطلاقه
-غالباً- إلى الإجماع على المسائل،
فوقع التعبير بمصطلح يشمل: الإجماع
على المسائل، وكذا الإجماع على
معاني نصوص الوحي، وكذا المسائل
الكلية المنهجية التي تدرج ضمنها
مسائل فرعية.

أن الإجماع المنضبط هو إجماع
السلف، وهذا ما أشار له ابن تيمية.

لأن أهل البدع يدّعون الإجماع على
عقائدهم، فالتعبير بالإجماع يوهم أن
إجماعهم معتبر، والأمر ليس كذلك؛ إذ
الإجماع المعتبر - خاصة في أبواب
الاعتقاد - هو إجماع السلف ومن سار
على منهجهم لا غير.



المطلب الثاني

طريقة تحصيل مذهب السلف

المسألة الأولى

كيفية نسبة المذهب للسلف

للناس في نسبة المذهب أو القول للسلف طريقان:

النقل؛ وذلك من خلال نقل النصوص المبينة لمذهب السلف، والنقل له منهجان:

تحصيل مذهب السلف من خلال نفس أقوالهم، واستقرائها والنظر في متونها وأسانيدها، والتثبت من ذلك وكثير من أقوال السلف صريح في الدلالة على معناه.

الحكاية عن استقرأ أقوال السلف وثبت منها، من أئمة وعلماء المسلمين.

والكتب المصنفة على هذه الطريقة كثيرة جدًا، فالآمة قد أوعبت في نقل أقوال السلف، والنقل عمن استقرأ أقوالهم من أئمة المسلمين، فصار مذهب السلف منسوبًا إليهم من جهة التواتر والإجماع.

وهذا الطريق هو الطريق الصحيح في نسبة العقائد إلى السلف، وهي الطريقة المعتمدة والمأمونة لمعرفة مذهبهم.

٤ الاستنباط والاجتهاد، والمراد به: نسبة الأقوال للسلف من خلال النظر في أقوالهم غير الصريحة واستنباط مذهبهم منها، أو من خلال الاجتهاد بنسبة القول لهم؛ بناء على ما يعتقد الناظر فيهم، وهو نوعان:

الاستنباط، وهو: النظر في أقوالهم غير الصريحة في دلالتها على مسألة معينة، واستنباط ما قد يفهم أنهم يقولون به، وهذا المسلك في نسبة العقائد إلى السلف ليس هو الأساس في نسبة الأقوال لهم، وإنما يُسلك فيما لم ينصُوا عليه.

وهذا المسلك من الاستنباط يشترط فيه:

أن تكون عبارات السلف فيه محتملة للمعاني المنسوبة 
إليها.

أن يكون للقول المستنبط مستند من نصوص الشريعة. 

ألا يخالف القول المستنبط منهج السلف أو من يُنسب 
إليه القول منهم في الدلائل والمسائل.

أن يكون القول أو المذهب الذي حصل الاستنباط منه 
صحيح النسبة إلى قائله.

الاجتهد المحسن: وذلك من خلال نسبة المذهب أو القول للسلف من غير استناد إلى النقل عنهم، ولا عن نقل عنهم، وليس للسلف في ذلك القول المنسوب إليهم كلام، وإنما هو اجتهد محسن ممن نسب القول إليهم، وهذا بناء على ظنه بأن السلف لا يمكن أن تقع منهم مخالفة لما يعتقد هو.

وهذا المسلك استعمله بعض المتكلمين وغيرهم من أهل البدع في نسبة العقائد للسلف؛ بناء على أن قولهم صواب، وأن السلف لا يقولون إلا ما هو صواب، فيكون السلف قائلين بقولهم.

ضوابط فهم كلام السلف

حتى يفهم كلام السلف على وجهه ومراده، ينبغي لمن ينظر فيه أن يستحضر جملة من الضوابط، وهي:

المسألة الثانية

- ١ أن تفهم ألفاظهم وتعابيرهم وفق معهود لغة العرب والحقائق الشرعية.
- ٢ حَمَلَ مجَملَ كلامَهُمْ عَلَى مَبِينَهُ، وَمُتَشَابِهِهِ عَلَى مَحْكَمَهُ، وَمُطْلَقُهُ عَلَى مَقِيَدِهِ.
- ٣ معرفة القول أو المذهب أو الشخص الذي توجهوا بالرد عليه، وفهم عباراتهم؛ بناءً على ما قام بذلك المردود عليه من معتقد.